

نجوى منصورى

جامعة الحاج لخضر باتنة

حوارات الذاكرة الثورية وتآزمات الواقع في رواية -جسر للبوخ وآخر للحنين- لزهور ونيسى

الملخص

نقف في هاته الدراسة عند حوارات الذاكرة الثورية وتآزمات الواقع في رواية جسر للبوخ وآخر للحنين للكاتبة الروائية لزهور ونيسى، بحيث مثلت الرواية هذا النتاج الجديد في ارتباطها بمرحلة التحول، والتصاقها بالرغبة في التواصل والانفتاح بكينونة حديثة، ودخولها عوالم النص اللامحدود المشكّل للتصور الراهن لحقيقة النص الإبداعي عموماً، والسردى على وجه الخصوص، والمرتبط بمجالات التأويل وتعدد الرؤى والقراءات، وتبجيل النص في تمرده وانزياحه عن النموذج الفنى القديم.

الكلمات المفتاحية: حوارات، الذاكرة الثورية، تآزمات الواقع، الرواية، لزهور ونيسى

أنجبت الكتابة الأدبية المرتبطة بمرحلة النهضة وما بعدها نتاجا جديدا عكس ثقافة القرن العشرين والواحد والعشرين، وأصبح ملاذ من رغب من المبدعين في اقتحام عوالم الانبعاث والتجريب، باعتبارهما منطلق التغيير والارتقاء بمنزلة الأدب والأدباء، هذا التغيير الذي ساعد على انتعاش جو الإبداع في مجال السرد وديناميته، والتحول في مسيرة الثقافة، وانكسار خطية القيم الموروثة.

مثلت الرواية هذا النتاج الجديد في ارتباطها بمرحلة التحول، والتصاقها بالرغبة في التواصل والانفتاح بكينونة حدائية، ودخولها عوالم النص اللامحدود المشكل للتصور الراهن لحقيقة النص الإبداعي عموما، والسردى على وجه الخصوص، والمرتبب بمجالات التأويل وتعدد الرؤى والقراءات، وتبجيل النص في تمرده وانزياحه عن النموذج الفني القديم.

إن البحث عن النموذج الإبداعي المتوحد (من التوحد) الذي يحمل صفات وراثية حتمية، وقيم علاقات تواصلية استثنائية موصوفة بالغموض والخفاء (أي عدم البوح)، وينتج عطاء مغايرا للعادة لا يمكن البوح عنه بسهولة، هو ما أدى بالدراسات النقدية الحديثة إلى البحث عن هذه المستويات في الرواية، باعتبارها النص الذي فرض نفسه ولفت الأنظار إليه، في طريقة خروجه عن نمطية التعايش والتواصل القديمين في تمثله للفرد الذي ينتمي إلى مجتمع النتاجات الإبداعية، وولوجه إلى نمطية خاصة ذات طبيعة مغايرة يظهر فيها فردا منحازا إلى ذاته، متصرفا في علاقاته الخفية التي يقيمها مع أفراد مجتمعه من بني جلدته.

إن التوحد الإيجابي الذي ارتضته الرواية الجديدة ومنها الجزائرية، قد أقمها في علم السرديات الحديثة التي تبحث في الأدوات الإجرائية التي تمنح النص السردى تفردا وعبقريته، من خلال الإنزياحات النصية الفعالة على مستوى صيغ وأساليب التعبير، وجدة اللغة، وأشكال التموضع الزماني والمكاني،... وكذلك من خلال العلاقات الخاصة التي يقيمها مع من سبقه من النصوص القريبة أو البعيدة زمنيا، وهو ما يشكل في

مجمله مسيرة النص الإبداعي السردي وتحولاته عبر المتغيرات الزمنية والتاريخية التي ينشئها النص ذاته، والتي تختلف عن العصور الزمنية التي ينشئها الإنسان .

لقد تنامت سلطة إغراء الرواية للمبدعات في الجزائر بفعل تزايد إقبال الوافدات عليها والتجريب في مسالك كتابتها، فتمكنت الرواية النسائية من الظهور وبقوة في المشهد الثقافي والأدبي لتستوعب إشكاليات المرأة في علاقتها بالذات وبالأخر الرجل والوطن والمجتمع في تحولاته وتحدياته المتواترة، ومن هنا كان اختيار المبدعة لجنس الرواية انفتاح على فضاء محشو بأسئلة الواقع بمتناقضاته ومعاناة الإنسان البسيط والإضطرابات السياسية والإجتماعية والإقتصادية .

لقد مثلت المدونات الروائية الرائدة في هذا المجال عند الروائية الجزائرية "زهور ونيسي" وفق التصور السابق سمة الظاهرة الأدبية التي صعدت مجموعة من القضايا المتعلقة بذاكرة المرأة وذاكرة الوطن، و هنا برز صوت الثورة في ثنايا خطاباتها الروائية التي استدعت حركية النضال والكفاح والتضحية، بل وقد برز صوت المرأة الصانعة للثورة الحاملة لمبادئ "الإلتزام" .

تشكل رواية "جسر للبوح وآخر للحنين" تجربة روائية واعية تحتضن لقاءات و حوارات الذاكرة الثورية وتآزمت الواقع الجزائري أيام التسعينات، فالى جانب المقدرة السردية في تخطي التجريب في الواقع الجمالي، تختزل المبدعة رصيدها التاريخي المتعلق بقسنطينة /المكان من الزمن القديم الثوري إلى الزمن الحديث الدامي، فوقع التعانق عن طريق الجسر الرابط بين الذاكرة والوعي، فقد اتحدت الروائية من تاريخ مدينة الجسور المعقدة مسرحاً لأحداث روايتها التي تمتزج فيها الرؤية الأدبية والرؤية التاريخية فيتلاقح الواقعي والتخييلي وتتألف الأحاسيس والحقائق لإنتاج تجربة إبداعية يمكن تصنيفها ضمن ما يسمى بأدب الإلتزام .

الإلتزام في الرواية بين التاريخ الثوري والواقع الإجتماعي:

عاشت الرواية الجزائرية بعد فترة السبعينات مرحلة مهمة خطت بنوعية الكتابة درجات أكدت من خلالها وجود وعي ذاتي وجماعي، وقد كان هذا الوعي أساس الصراع الأيديولوجي والاجتماعي والثقافي... الذي اصطبغت به الكتابات الروائية الحاملة لذاكرة الثورة والمواجهة لأزمات الإستقلال وما بعده .

لم يكن تشكيل الصراع الأيديولوجي الحامل لهموم المثقف الجزائري من خلال الرواية نظرة تبسيطية مناقشة ومحللة؛ وإنما استدعت الكتابة الجديدة تجاوز المعهود والانزياح عن المألوف نحو ما يمثل الوعي الخاص اتجاه أحداث مخاض الكتابة الجديدة .

إن الرؤية الواعية اتجاه الأيديولوجيا، التاريخ، وحتى الانطباعات الذاتية (النفسية)، قد شكلت دلالات سطحية أو عميقة انبنت بطريقة مؤطرة وغير مؤطرة، عن طريق اللجوء إلى أزمنة التاريخ وشخصياته وحديث الذات التي تبوح بما عانته من اضطرابات وتكتلات نفسية. وكذلك بالاعتماد على التحولات الأيديولوجية المصاحبة لمجريات أحداث واقعية عاشها المجتمع .

وباعتبار المادة الاجتماعية الواقعية بؤرة النص الروائي الممثل للهزيمة والصدمة والحرية والفضيحة... 1 نستطيع القول إن الرواية الجزائرية قد انفتحت على فضاءات شاسعة للتعبير على الواقع التاريخي والواقع الإنساني الأيديولوجي والاجتماعي والنفسي... بكل أبعاده ودلالاته.

وقد انعكس ذلك في اللغة ، الشخصيات، تضارب الأزمنة والأمكنة... وغيرها من مستلزمات الانزياح عن المألوف في الكتابات السردية عامة والروائية على وجه الخصوص؛ باعتبارها (أي الرواية): <<نمط أدبي دائم التحول والتبدل، يتسم بالقلق بحيث لا يستقر على حال، وكل عمل روائي يجاهد بدرجات متفاوتة في قوتها ودقتها الفنية، لكي يعكس عملية للتغيير الدائبة، بل وحتى الدعوة للتغيير في بعض الأحيان >>2.

أما عن مفهوم الالتزام الذي بحث فيه بعمق مفكرون من العالم الغربي و العربي من أمثال: "سارتر" و"لوكاتش" و "توماس مان" و"محمد مندور" و"عز الدين إسماعيل" و"محمد مصايف" ، وغيرهم... نكتفي بالقول العام من أن الالتزام في الأدب؛ أن تجسد التجربة الإبداعية في شكل من أشكال التعبير الأدبي قضايا الإنسانية عبر تاريخها وعادة ما يترأس هذه القضايا صراع الإنسانية ضد الاستغلال والعبودية والطموح إلى العدالة والحرية، ولعل هذا المفهوم يوازي مفهوم القومية التي عرفها أدب المجتمعات التي عاشت في ظل الإستبداد والقهر الإستعماري، ذلك أن: >> الشروط التي يجب توافرها في الأدب ليكون قوميا هي نزاهة الإحساس وصدق التعبير عنه، والقدرة على النقل والإيحاء، والبقاء في محور الأمة فكريا وعاطفيا ولغويا

<< 3

نلتمس في رواية " جسر للبحر وآخر للحنين" التزام الروائية بالروح الوطنية ذات الطابع النضالي من جهة ، من خلال إهتمامها بفترة الثورة التحريرية والنضال الوطني ضد المستعمر الفرنسي، والتزامها بالروح الوطنية ذات الطابع الإجتماعي من جهة موازية من خلال تسليط الضوء على التحول الإجتماعي في الجزائر الجديدة المستقلة، فبالرغم من تماهياها في تاريخ الجزائر الثوري ، تقف كمسؤولة وبوعي ذاتي عما يحدث من تغيرات التسعينات ،فقد حفلت الرواية بحضور حاضن لمدينة قسنطينة التي احتفظت بتاريخها بين الأمجاد والإنكسارات المتعاقب مع رهن قاس منتكس، يحاول التجدد وتجاوز الانتكاسات.

تتطلق أحداث الرواية من النهاية وتعود تدريجيا نحو البداية اعتمادا على ذاكرة السارد البطل " كمال العطار" الذي عاد إلى مدينة الجسور بعد غياب دام أربعين عاما ،وخلافا لطريقة الروائية السردية،المعتمدة آلية الحوار والبناء السردية بطريقة كلاسيكية عمدت الروائية إلى تقنية الفلاش باك،وتلك محاولة لتكسير صلابة الزمن النفسي الذي يتبع خطا أفقيا في استرجاع الذكريات.

يمتد الفضاء التاريخي على مسار صفحات الرواية من أولها إلى آخرها, عبر تلافيف الأحداث المخزنة في ذاكرة كمال العطار منذ تاريخ قسنطينة الغائر في القدم ابتداء بقسنطينين القائد الروماني الذي ينهض تمثاله في ساحة محطة القطار التي عاد منها البطل إلى مدينته, ويتوقف القطار عند المحطة تنفتح أحداث الرواية لتتعلق من المحطة نفسها أثناء عودته إلى الجزائر العاصمة, ليسرد وهو يقلب جنبات المدينة تحت وهج الأمجاد والانكسارات, أسماء العديد من الشخوص التاريخية الذين تركوا بصماتهم في مدينة الصخر العتيق من ماسينيسا مؤسسها, وباعث أمجادها إلى سيزار, فسيفاقس, فماكساس, ثم عقبة بن نافع وصولاً إلى الجنرالين الفرنسيين بوربون, وكولوزال اللذين شوها صورتها بعد أن عجزا على فتحها متربصين بأهاليها مدة سبع سنين.

ارتبط هذا الفضاء التاريخي الغارق في دهاليز ماضي المدينة باستخلاص العبر وإسقاطها على ما حل بالمدينة من فساد في القيم والأخلاق, فكان حديث الراوي عن تلك المشاهد بمثابة رثاء للمدينة التي صمدت على مر الأجيال لكنها لم تصمد الآن أمام مظاهر التخلف التي صبغت المدينة بآثار اللامبالاة والجري وراء المادة على حساب المبادئ والقيم, غير أن التاريخ الوطني والثوري لهذه المدينة أعاد لها توازنها المفقود.

تحقق ذلك في النص من خلال الفاعل الأساسي " السارد " وآرائه التي تحمل صدق وعي ذاتي خاص بالمبدعة يقول : >>... وتمر الأجيال لتبقى تلك الحضارة تركة للعالم أجمع وثرء للإنسانية كلها... هذه هي الحضارة، ويبدو أن أهل مدينته يدركون ذلك، ليس بهذا المعنى، ولكن على الأقل بمعنى أن هذا ماضيهم، تاريخهم مهما اختلف البشر الذين مروا على هذه الأرض عنهم اليوم ، عن قناعاتهم وتوجهاتهم وهوياتهم التي اختاروها، أو تلك التي ورثوها أبا عن جد، لكن عندما لا يعجبهم شيء يعدمونه من حياة التاريخ << 4

يحمل السارد ثقلا معرفيا ورصيذا أيديولوجيا يخص الكسر السياسي و بعض الحقائق عن محاولات المحتلين للسيطرة على مدينة قسنطينة دون جدوى عبر تاريخها الطويل، يقول : <<كل الحملات التي شنت لمتلاكها باءت بالفشل، حتي تلك التي جاءت باسم الأخوة والدين، و"حمودة باشا" فارس جارتها تونس ، يكاد يهلك وهو يحاول أن يحتل جبل منصورتها، ليرجع محذولا إلى بلاده، لأنه نسي أنها المنصورة منذ "عقبة بن نافع" إلى "كلوزيل" الذي يتصور أنه قد امتلاكها، فكان لطعم انتصاره مذاق العلقم على مدى ما بقي من عمره >>5 << إنها تبدو اليوم غير مستعصية على الإمتلاك أكثر من أي وقت مضى >> 6.

ولابد أن نذكر في هذا المقام بعض صور الصراع القائم بين المحتل والوطن والممثلة في الهوية والإنتماء والدين و اللغة ، يقول السارد : <<هاهي المطبعة، كانت وقت الإستعمار تطبع جريدة باللغة الفرنسية "لاديباش"، واليوم كتبت على بابها كلمة " النصر" بالحرف العربي، جريدة الجزائر المستقلة، في هذه المدينة المتعددة الأصول والأبعاد، كان الحرف العربي سائدا ، حتى أيام الإستعمار، عبر صحافة رائدة وفكر راق، نابع عن حركة النهضة الإصلاحية، وإمامها الفذ سليل صنهاجة "ابن باديس">>. 7

الهوامش والإحالات:

¹ - ينظر، عمر محمد الطالب ، الخطاب الروائي العربي الجديد والتراث (الأسس النظرية لكتابة النص الروائي من جيل نجيب محفوظ إلى جيل الغيطاني، كتابات معاصرة، مجلة الإبداع والعلوم الإنسانية، العدد6، المجلد2، جامعة الحسن الثاني، المغرب ، ص 49.

² - ألان روجر، الرواية العربية، مقدمة تاريخية ونقدية، ترجمة حصة إبراهيم منيف، المجلس الأعلى للثقافة المشروع القومي للترجمة، 1997، ص 07 .

³ _ عمر الدقاق ، نقد الشعر القومي، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق 1978، ص 91

⁴ _ زهور ونيسي " جسر للبوح وآخر للحنين " ، منشورات زرياب ، ص 8

⁵ _ الرواية ، ص 14

⁶ _ الرواية ، ص 14

⁷ _ الرواية، ص 10